محمد أوسوس

في رحاب "الأونگال"

دراسات في الرواية الأمازيغية بالجنوب

منشورات رابطة تيرا

2022

Iffγ d udlis s wannal n usinag agldan n tussna tamaziγt
صدر هذا الكتاب بدعم من المعهد الملكي للثقافة الامازيغية

المؤلف: محمد أوسوس
عنوان المؤلف: في رحاب "الأونـگال"
دراسات في الرواية الأمازيغية بالجنوب.
تصميم الغلاف: عزيزة نفيع
منشورات رابطة تيرا
رقم الإيداع القانوني: 2022MO4252
ردمك: 978-9954-655-74-0
سنة الإصدار: 2022
المطبعة المركزية لسوس أيت ملّول

تقديـــم

لكَم نفرح ونرتاح ونحن نتابع الحركة الأدبية والنقدية الأمازيغية تسير في ارتقاء وتطور إيجابي ببلادنا؛ بالرغم من الظروف غير المشجعة وغير الموائية في كثير من الأحيان وعلى أكثر من مستوى. تطور جاء في سياق الاعتراف بالأمازيغية لغة وثقافة وهوية في مطلع الألفية الثالثة؛ وكانت وراءه مؤسسات رسمية وعلى رأسها المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية والجامعات وأخرى مدنية متمثلة في بعض الجمعيات الثقافية والأدبية، وكان من ورائه أيضا باحثون أفراد يشتغلون بحماس وفي صمت وبدون جلبة ويكتبون وينشرون باستمرار مقالات ودراسات. يعالجون مواضيع أو يثيرون قضايا أو يحللون نصوصا من الأدب الحديث، ويعد محمد اوسوس واحدا من هؤلاء؛ إن لم يكن أبرزهم، ففضلا عن مؤلفاته في مجال الميثولوجيا وأعماله الإبداعية في الشعر والقصة والمقالة والرواية؛ نشر العديد من الدراسات حول الأدب الأمازيغي في كتب جماعية وفي مجلات علمية محكّمة، وبذلك غدا أحد الفاعلين الأساسيين في الحقل الأدبي والنقدي الأمازيغي.

ويندرج هذا العمل الجديد للكاتب ضمن الدراسات الأدبية والنقدية للأدب الأمازيغي الحديث والمعاصر، وهو مجال ما يزال الإنتاج فيه محدودا جدا كميا ونوعيا، وخصوصا ما يتعلق منه بالأجناس النثرية والسردية وبالرواية بشكل أخص، بالرغم من تراكم الأعمال الإبداعية والأهمية المتزايدة التي بدأت تحظى بها الكتابة الروائية؛ باعتبار بنياتها مؤهلة أكثر من الأجناس الأدبية الأخرى لاستيعاب التحولات والتغيرات العميقة التي عرفها المجتمع وما نتج عنها من أفكار وصراعات وتناقضات.

ويعد هذا العمل المؤلف الأول من نوعه الخاص بدراسة الرواية المغربية الأمازيغية، إذا استثنينا بعض البحوث الجامعية على مستوى الماستر والدكتوراه وهي غير منشورة، وبعض الكتب التي جمعت بين دفتيها عروضا سبق إلقاؤها في ندوات وملتقيات علمية، ونحيل هنا على الملتقى الوطني الرابع للكتاب بالأمازيغية الذي نظمته رابطة "تيرّا" للكتاب باللغة الأمازيغية بأگادير في مارس 2014 في موضوع "الخطاب الروائي الأمازيغي: قراءات وقضايا وتجارب"، وصدرت أعماله في السنة نفسها بعنوان "قراءات في الرواية الأمازيغية"، وأعمال الملتقى الأول للرواية الأمازيغية الذي نظمته رابطة "تيرّا" ومختبر الدراسات والأبحاث في اللغة والأدب والثقافة والهوية (LLCI)

في شهر نونبر 2018 بكلية الآداب والعلوم الانسانية بأگادير وصدرت أعماله سنة 2019 بعنوان "الرواية الأمازيغية: النشأة والامتداد".

"في رحاب 'الأونگال" هو العنوان الرئيسي الذي اختاره الكاتب لمؤلفه. ولا يخفى على القارئ اللبيب أن الكاتب تعمد استعمال مصطلح "اونگال" المستحدث من جذر أصيل في اللغة الأمازيغية لترجمة لفظ الرواية، والذي يستبطن في الآن ذاته رهانا حضاريا مرتبطا بالسياق الثقافي الغربي الذي نشأت فيه الرواية، وهذا يوضح أن محمد اوسوس، مع أنه لا يجادل في المرجعية الغربية للجنس الروائي تاريخيا وحضاريا، فهو مقتنع بتبيئته وتجذيره محليا وفق الخلفية ذاتها التي تولد عنها، ومن ثم مشروعية الحديث عن الرواية الأمازيغية وعن خصوصياتها الثقافية. ولتفادي الالتباس ألحق الكاتب بالعنوان الأول عنوانا فرعيا مفسرا ومدققا لموضوع الاشتغال وحدوده وهو "دراسات في الرواية الأمازيغية بالجنوب".

وعلى الرغم من أن الدراسة مسيجة منهجيا ضمن مجال الجنوب المغربي لضبط حدود الاشتغال والتحكم في مساحته، فإن الدارس خصص مدخلا عاما ضافيا بالمعلومات والمعطيات المحينة حول نشأة الرواية الامازيغية بشكل عام، ففضلا عن تحديد المصطلحات والمفاهيم وتحليل رهاناتها (مصطلح اونگال، مصطلح تاسكلا، مفهوم الرواية الأمازيغية) تناول الإرهاصات الأولى لنشأة الكتابة الروائية وسياقها في الأدب الأمازيغي والذي سبق الميلاد الفعلي الواعي لأونگال بأكثر من ثلاثين سنة، وهكذا تناول نشأة الرواية الأمازيغية بمنطقة القبايل بالجزائر وبمناطق الريف والوسط والجنوب الشرقي وسوس في المغرب قبل أن يحصر الحديث والتحليل في الرواية الامازيغية بالجنوب التي احتقب من مسارها مرحلتين: الأولى تأسيسية وتمتد زمنيا من سنة 2002 الذي عرفت صدور أولى النصوص الروائية إلى سنة 2011، وفيها كان الإنتاج قليلا وضعيفا، يطغى عليه الطابع الواقعي والارتهان لقضايا الهوية. ومرحلة الامتداد والترسيخ والتحول وتمتد من 2011 إلى 2022، وفيها حاولت هذه الرواية إثبات وجودها وترسيخه وبداية التوجه نحو التجديد والتجريب، بالرغم من أن تيماتها وقضاياها تستلهمها في الغالب من الواقع السوسيوثقافي والسياسي للمجتمعات الأمازيغية. في المرحلة الأولى التفت الباحث إلى نصين مؤسسين للرواية الأمازيغية بالجنوب هما "نمولا ن تمكتيت" للخطير أفولاي و"تاوارگيت د إميك" لمحمد أكوناض 'دفاعا عنهما وإنصافا لهما' لأن النص الأول عانى من التجاهل والثاني من التهجم.

بعد ذلك الحديث عن الرواية التأسيسية، انتقل الدارس إلى تناول بعض أوجه التحول والتطور التي عرفها المنجز النصي لهذه الرواية، وخصوصا في المرحلة الثانية التي تنامت فيها الاصدارات وتعددت طرق الكتابة ومسالكها، واختار زاويتين كبيرتين لرصد مظاهر هذا التحول، هما علاقة الروائي بالهوية وعلاقته بالواقع، وأكد أنه بدأ

الانتقال من كتابة روائية تعبر عن الهوية إلى كتابة روائية تعبر بالهوية وتتطلع لتشييد هويتها الخاصة، وقد اتخذ ذلك عدة مسالك من أهمها، وفق ما رصده الناقد في عدة نصوص روائية: استدعاء رموز الذاكرة الأمازيغية لغايات جمالية ورمزية (تين هينان / تيسكي العرجاء، مريردة ن أيت عتيق، أبوليوس أو أفولاي ..) واستثمار المخزون الحكائي الأمازيغي بمختلف أنواعه وأشكاله، وفضلا عن هذا رصد الدارس بعض مظاهر الانتقال من الانهمام بالهوية الجماعية إلى الهوية الفردية والمشاغل الذاتية (التذويت، تيار الوعي، المونولوج ...). وفيما يخص علاقة الروائي بمرجعه بيّن الدارس أن الرواية الأمازيغية، خصوصا في نماذجها التي صدرت في السنوات الأخيرة، سعت إلى التحرر من النزعة الواقعية التسجيلية، وأن الروائي بذل طاقته للانزياح عن المرجع الواقعي ومراوغة سلطته، من خلال محاولات خرق قواعد السرد التقليدي باعتماد عدة تقنيات سردية وآليات ومسالك في الكتابة (الكرنفالية، الفانتاستيك، السريالية، الواقعية السحرية، الميتاسرد والتضمين الميتاسردي...)

بعد هذا الجزء من الكتاب الذي نرى أنه يجمع بين النقد والدراسة والتأريخ للرواية الأمازيغية، عاد الكاتب إلى متون النصوص الروائية دارسا ومحللا وناقدا، فخصص أكثر من نصف مؤلفه لمقاربة نماذج من النصوص الروائية بعنوان "قراءات في نصوص روائية"، قارب فيه أكثر من عشر روايات صدر أغلبها سنة 2020. وباستثناء دراسته عن "الأونامبرية في الرواية الأمازيغية بالجنوب" التي رصد فيها بعض مظاهر استلهام هذه 'الأسطورة' في ثمانية نصوص روائية صدرت في الخمس سنوات الأخيرة، ما عدا رواية "إگضاض ن ويهران" التي صدرت منذ سنة 2010، مناقشا ومحللا أشكال هذا الاستدماج والتناص من زوايا متعددة، ومستخلصا أوجه إغناء هذه الأسطورة للنص الروائي بنائيا ودلاليا ورمزيا. باستثناء هذه الدراسة خصص الناقد لكل رواية مقاربة خاصة بها. مقاربات متعددة، مؤتلفة ومختلفة في الآن ذاته، مؤتلفة من حيث الغاية التي تصدر عنها وهي البحث عن جماليات الكتابة السردية الروائية، ومختلفة من حيث التفاصيل والإجراءات والآليات التي يعتمدها الناقد لاختبار درجة تحقق تلك الغاية.

وفي الجانب المنهجي، ومن أجل توسيع التحليل وإغنائه، يستند الناقد والدارس محمد اوسوس إلى مجالات ومرجعيات معرفية ونظرية متعددة، لذلك نجده لا يتوقف في مقارباته عند حدود إبراز مكونات النص وتوصيفها، بالرغم من أهمية هذا الاجراء، بل يعمد إلى التفسير والتأويل والمناقشة، مستحضرا علاقة النص بعوالمه المرجعية وبسياقات تكونه، ولذلك نجده أيضا يزاوج بين التقني الجمالي الذي يمتح من مناهج النقد الأدبي البنيوية والشعرية بمختلف روافدها ونماذجها، وبين التعامل الثقافي والسوسيولوجي الذي يربط النص بالثقافة والمجتمع والواقع.

والكاتب واعٍ باختياره المنهجي، وأن قراءاته للنصوص الروائية، وفق تعبيره في مقدمة الكتاب، "انطلقت من التفاعل مع النصوص، وأملاها منطقها دون أن تنضبط لمنهجية واحدة لكونها تستقي من حقول النقد الأدبي كما تنهل من مجالات الانثروبولوجيا والدراسات السوسيونقدية". الاختيار المنهجي هذا جعلنا، من جهة، أمام دراسات نقدية للنص الروائي تنطلق من النص وتصغي له وتحاوره باستخدام مفاهيم وأدوات وآليات منهجية بكفاءة ومرونة، ومن جهة أخرى، جنبنا إنتاج نص نقدي مغلق أو تمارين في المنهج يُختزل فيها النص الأدبي إلى شاهد على كفاية مفاهيم المنهج وأدواته.

وفي الأخير لا أملك إلا التنويه بالجهد الذي بذله محمد اوسوس دارسا وناقدا وهو يتتبع مسير الرواية الأمازيغية، ويحلل نماذج من منجزها، ولا شك أن هذا العمل يشكل إضافة نوعية للمكتبة المغربية، وسيشكل مرجعا أساسيا لا غنى عنه للمشتغلين والمهتمين بالرواية الأمازيغية.

د. محمد افقير

أستاذ بشعبة الدراسات الأمازيغية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة ابن زهر - أكادير